

٥٩ - باب قول الله تعالى

﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقوله : ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ الآية [الفتح: ٦].

قال ابن القيم في الآية الأولى:

فسر هذا بأنه سبحانه لا ينصر رسوله ، وأن أمره سيضمحل.

وفسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقدر الله وحكمته.

وفسر بإنكار الحكمة ، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله

﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ .

﴿... الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ...﴾ الآية .

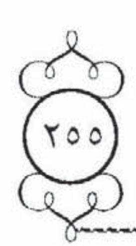
قال ابن القيم : في الآية الأولى :

المقصود من هذا الباب أن كثيرا من الناس لا يسلم لحكمة الله ولا يسلم لله قدره السابق ولا يسلم له سبحانه ما أراده من تنبيه العباد على أغلاطهم وأخطائهم حتى يستعدوا وينتبهوا ،بل أساءوا الظن بالله من وجوه كثيرة:

١- فمنهم من يظن أن الأشياء التي تقع مما تخالف هواه لم تكن بحكمته ولم يكن بقدر سابق .

٢- ومنهم من يظن أنه بمجرد المشيئة لا عن حكمة تقع .

٣- ومنهم من يظن أن الله جار على العباد وظلمهم حتى فعل كذا وكذا .



ﷺ، وأن يظهره على الدين كله.

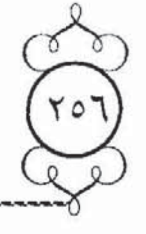
وهذا هو ظن السوء، الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح. وإنما كان هذا ظن السوء ؛ لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه ، وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق. فمن ظن أن يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق. أو أنكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد ، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة ، فذلك ظن الذين كفروا. ، فويل للذين كفروا من النار.

وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم ، وفيما يفعله

وظلم فلان ،وهزم فلان ،فلماذا هذا كله ؟ ! .

فهذه ظنون الناس وهي كثيرة : ولهذا قال الله عز وجل في المنافقين ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ وهذا في قصة أحد لما وقعت وجرى للمسلمين ما جرى من الهزيمة والجراح وقتل سبعين .نجم النفاق وتكلم المنافقون بما تكلموا به وظنوا بالله غير الحق وقالوا : ﴿هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ أي هل لنا تصرف في شيء ،ويقولون : ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا﴾ أي أننا مجبورون ،وليس لنا أمر ،ولكن قادنا محمد إلى هذا الأمر حتى وقع ما وقع، وهذا كله من جهلهم وضلالهم ومن قلة بصيرتهم وعمى قلوبهم ،ولهذا ظنوا بالله ظن السوء ،وظنوا أن ما وقع لم يكن لحكمة بالغة ،وظنوا أن الله لا ينصر رسله ،وأنه سيضمحل أمر هذا النبي ،وأن ما وقع لم يكن إلا بمجرد المشيئة .فصار ظنهم هذا إجماع بين سوء الظن بالله من جهة أنه لا ينصر رسله ولا أولياءه ومن جهة أنه لم تقع هذه عن حكمة بل بمجرد المشيئة .

وهذا كله باطل . ولهذا بين سبحانه في كتابه العظيم حكمه وأسراره فيما يقضيه ويفعله ويشرعه وأنه يبتلي عباده في السراء والضراء والشدة والرخاء



بغيرهم، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله، وأسماءه، وصفاته، وموجب حكمته وحمده.

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا، وليتب إلى الله ويستغفره من ظنه بربه ظن السوء. ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتًا على القدر وملامة له. وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك: هل أنت سالم؟

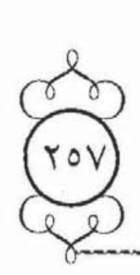
فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة وإلا فإني لا إخالك ناجيا

ليمحص ما في قلوب المؤمنين ويمحق الكافرين ويتوب المؤمنون إليه ويستغفروه ويعدوا للقاء الله سبحانه والقيام بحقه كما قال تعالى: **﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥) وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾**.

فله سبحانه حكمة بالغة في ابتلاء هؤلاء وهؤلاء فالمؤمنون يبتلون ليتمحص إيمانهم ولتغفر سيئاتهم وليعدوا للقاء ربهم. والكفار يمحقون، والمنافقون يفضحون ويظهر خزيهم وباطلهم.

ولكن المنافقين فسدت قلوبهم وأساءوا الظن بالله ولهذا نصرالله المؤمنين كما وعدهم **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ...﴾** **﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾** **﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾** وهذا الوعد لا يقدح فيما يقع من هزيمة أحيانا ليتخذهم شهداء ولحكمة بالغة أخرى تقدم بعضها. اهـ.

ولأن الناس لو نصروا دائما ولم يصبهم شيء من الخلل لربما ابتلوا بالعجب والكبرياء وعدم الخضوع لله وعدم الاعتراف بتقصيرهم ونقصهم، ، وربما ظنوا أن هذا بحيلتهم وقوتهم وأعمالهم، فإذا ابتلاهم بشيء من هذه الأشياء انكسرت نفوسهم ورجعوا إلى الله.



. . . .

والواجب على المسلم أن يفتش نفسه ويحاسبها لعله يسلم من هذا البلاء ، ولهذا من فتش نفسه وجد عندها عيوبا ووجد عندها اعتراضا على القدر وعجبا بنفسه وبأعماله إلا من عصمه الله .

وعلى المؤمن أن يؤمن بقضاء الله وقدره وأن له حكمة عظيمة فيما يصرفه وأن له قدر سابق وأن من حكمه وأسبابه العظيمة تهيئة عباده المؤمنين لما هو أفضل ورفع درجاتهم وليرجعوا إليه سبحانه وتعالى .

